

عارف علوان

قاسم حول

مُخرج سينمائي عراقي - هولندا



عرفته صديقا وعرفته مبدعاً، كاتب قصة ورواية وكاتب التمثيلية التلفزيونية التي إزدهرت في حقبة الجمهورية العراقية الأولى، فأبدع في كتابتها في نهاية الستينات وخص بها فرقتنا فرقة المسرح لنقدم له إثنين من التمثيليات هما "القضية رقم واحد" و"الرجل الذي فقد رائحته" والتمثيلتان لعبت فيهما أنا الدور الرئيس.

عملت مع عارف علوان في نهاية الستينات في مجلة الإذاعة والتلفزيون وكان مصمما للمجلة. وهو مصمم صحفي من طراز فريد ويبحث دائما عن الجودة والجديد والتصميم المعاصر غير المألوف والسائد. وفوجئت يوما بأنه كاتب قصة قصيرة من طراز فري أيضا، يوم نشر إحدى قصصه في مجلة الإذاعة والتلفزيون بعنوان "النمل". كان عارف علوان قليل الكلام كثير الصمت يستمع أكثر مما يتحدث، وفجأة تراه ينفجر ضاحكا حين يستمع إلى ملابسات الحياة ومفاراتها أو حينما يقتل الصمت بصوته الشجي، إذ كان يغني دائما لفريد الأطرش ويحفظ الألحان. وهكذا كان يتهرب من الحياة وبؤس السياسة. فُعرف مصمما حالما هائما ولم يكن يخوض النقاشات السياسية المتدولة.

غادرتُ العراق إلى لبنان بعد مجيء البعث للسلطة، ولم تمر فترة طويلة حتى غادر هو الآخر العراق متوجها إلى لبنان. وتُعرف على جبهة تحرير إريتريا فعمل معهم مصمما لمجلتهم الشهرية. وهكذا إنزوى وابتعد عن العراقيين الذين بدأوا يتوافدون إلى لبنان في نهاية السبعينات، والذين التحقوا جميعهم بالثورة الفلسطينية، ولم يكن يفكر أحدا منهم بالعمل مع جبهة تحرير أريتريا، الجبهة الفقيرة. كان عارف علوان يحرر المجلة الشهرية من ألفها إلى يائها وهم يقدمون له فقط الإفتتاحية السياسية، ومن خلالها يحرر أريتريا من الهيمنة الإثيوبية. لم يكن وجود جبهة تحرير إريتريا موضع إرتياح من قبل السلطات اللبنانية، فنصحوهم بالابتعاد عن الأراضي اللبنانية، ما حدا بالجبهة الإريتيرية بالإننتقال إلى روما في إيطاليا وممارسة نشاطهم الإعلامي من هناك. لم يكن لهم غير روما ولم يكن لهم غير عارف علوان. كانت مثابرة عارف علوان وإتزامه بالعمل وجديته في الإبتكار سمة يمتاز ويتميز بها، وقد إستفاد من الأمكانيات الطباعية في روما لتطوير المجلة وأصبح إطلاعه على التصاميم الأوربية الحديثة نافذة يطل من خلالها على الجديد فيضيف ذلك الى إبداعه الكثير.

في تلك الفترة كنت أنا دائم التواجد في العاصمة الإيطالية إذ لم تعد في بيروت إمكانية أظهار الأفلام السينمائية بعدما أصبح ستوديو بعلبك ضمن المناطق الساخنة والصعبة، فهو يقع في منطقة سن الفيل وقد بات ضمن المناطق الكتائبية المعادية للحركة الوطنية اللبنانية ومقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية. فصرت أقوم بتحريض أفلامي في روما، وحين إنتقل عارف علوان إلى روما وإستأجرت له جبهة التحرير الأريتيرية بيتا، ادعاني لأن أقيم معه شهراً لإنجاز تحميص وطباعة أفلامي السينمائية.

في تلك الفترة صرت أعرف عارف علوان أكثر وأطل على أفكاره في الحياة ومعتقداته وقدراته الإبداعية. ومع أن التصميم يستهويه كثيراً فهو عملية إبداعية لها مبدعوها إلا أن هموم عارف علوان الأدبية كانت أكبر من تصميم مجلة لفصيل سياسي ثوري لا تتعدى صفحاته الثمانية وأربعين صفحة.

صرنا نتجول أنا وعارف علوان في كنائس روما وأزقتها وحراراتها وآثارها التاريخية. وإستدليننا على شارع النبيذ بشقيه الأحمر والأبيض وهذا الشارع لا يبيع النبيذ المعتق بل يبيع النبيذ الطازج يوماً بيوم وله طعم خاص مختلف عن النبيذ المعتق. تجد في الشارع براميل كبيرة تنبت في قاعدتها حنفيات، ويأتي الإيطاليون عشاق النبيذ وهم يحملون الجرار المفخورة يملأونها ويذهبون إلى بيوتهم لتزدهر بالجرار طاولات الطعام الإيطالي. فكانت طاولة طعامنا تزدان يومياً بالنبيذيين الأحمر والأبيض. صرنا نأخذ معنا جراراً فخارية كبيرة وننقلها للسيارة ونعود للدار وكنت أنا أقوم بمهام الطبخ، إذ يحلو لنا الطعام البيتي مع النبيذ الطازج. في تلك الفترة كانت تشغل عارف علوان مسألتان الأولى التاريخ العربي والإسلامي وكان يبحث فيه في محاولة لمعرفة حقيقة الحاضر. فكان منهمكاً في قراءة الطبري ومن أحداث الطبري يبحث في حقيقة التاريخ وتأثيره على الحاضر. وفي جانب آخر كان مهووساً بمدينة روما وكان يضع الخطوط الأساسية لروايته التي أطلق عليها اسم "محطة النهايات" وحين تركته لم أعرف ما هو الشوط الذي قطعه في هذه الرواية التي يصور فيها تأثير المدينة الحضارية العظيمة وعالمها الساحر والمزدهم على شخصه.

حين تحررت أريتيريا وعاد الأريتيريون من منافيهم إلى وطنهم، بقي عارف علوان وحيداً، فذهب إلى بريطانيا ليطلب اللجوء السياسي هناك فحصل عليه. وإلتقيته في بريطانيا في إحدى المقاهي في أعوام التسعينات.

حين يغادر الإنسان صديقاً ويعود ليراه بعد سنوات طويلة يتوقع أن يراه كما تركه ويظن أن ملامحه باقية كما هي ولا يظن أن العمر يترك بصماته على سيماه الوجوه. ليس فقط على سيما وجه عارف علوان بل على سيما وجهي. إلتقينا وصرنا نضحك على بعضنا، أننا شخوص أخرى غير التي تركناها. وغادرت مودعا وكان الوداع الأخير حيث علمت بأنه قد فارق الحياة بعد أن تزوج في سنوات متأخرة من حياته تاركاً إرثاً ثقافياً من القصص القصيرة والمسرحيات والروايات والدراسات. فارق الحياة مودعا لبنان .. المغرب .. روما .. بريطانيا .. والعراق الذي لم يره.

فارق الحياة وغادر أحبته في التاسع عشر من شهر آذار عام 2017 وداعاً صديقي "عارف علوان"